كانت تجلس صامتة بصحبة عدة سيدات يشاهدن معًا فيلمًا مصريّاً. كان شعرها طويلاً على غير عادته، فبدت أكثر وحدةً وإهمالاً. حتى نظراتُها من خلف نظّاراتها أوحت بالوحدة والاستسلام.

لم تكن مفاجأتُها بي أقلَّ من مفاجأتي بها، وسألتني مباشرةً كيف عرفتُ بمكان وجودها. بعدما أخبرتها، لم يعد هناك موضوع للحديث. كان كل شيء حزينًا ومسنّاً. وددتُ لو أختطفها من هناك فأعزلها عن كل هذا. إنها د. الخاصة، لا إحدى النساء المسنّات في الملجإ.

لكنّني رحت أعلّق عينيّ بشاشة التلفاز.

بعد وقت مدّت إحدى السيدات يدها باتجاه الأزهار البلاستيكيّة الموضوعة على طاولة في مركز الغرفة وأخذتْ تتحسسها، ثم تركتها قائلةً: «خسارة أنها ليست أزهار حقيقية.»

٢٠٠٢/٣/٢٩

كانت الساعة تقترب من التاسعة، فأشعلتُ جهاز الراديو لأسمع أيضًا حالة الطقس، فربما كانت هنالك أخبار حسنة بخصوص الشمس.

مائتا دبابة احتلت مبنى مقاطعة رام الله وتمت محاصرة عرفات في أحد الطوابق.

عدت إلى المطبخ، ثم تذكرتُ أنني لم أنتبه إلى نشرة الأحوال الجويّة. ولكنها بعد لحظات بدأتْ تمطر بغزارة.

لقد سقطتْ إذًا بتلاتُ الأزهار من على أشجار اللوز دون أن أَقْربها. كلُّ ما وددتُه في هذه النهاية من الحياة هو مشاركة هذا الربيع نفسه والتمتع بزهره، رغم أنني لا أعرف كيف وأين وبأيّ حقّ.

وددتُ أيضًا لو استطعت أن أخرج من هذه الحياديّة التي وصلتُ إليها، حيث تناول الطعام وعدمُه يتساويان، الحديثُ وعدمُ الحديث، الحبُ وعدمُ الحب، وعلى المسار ذاته، الحياةُ والموت. بل لم يعد يهمني حتى أصدقائي تحت الحصار. صار لا يهمني. الإحساس الملازم صار أقسى من أيّ إحساس بالذنْب وأخطرَ منه؛ فإن اتصلتُ بهم فعلتُ ذلك لمجرّد التأكد من أنّ عددهم لا يزال كما هو، لا أكثر.

تركتُ النافذة ورحتُ أقف أمام الثلاجة أفكر. بعد تفكير لا بأس به، وجدتُ أنّ كل ما أملكه من أفكار لدعم ناسي في هذه الفترة هو تغيير كلمة السر من اسم آخر صديق لي إلى «عرفات.» لكنني لا أعرف بماذا أعرّفه حتى إذا ما نسيتُ كلمة السر أعود وأتذكرها.

القدس

من موادّ العدد القادم من الآداب

■ **الدولة الديموقراطيّة العلمانيّة في فلسطين التاريخيّة: اقرأ ٧ إسهامات عربيّة في ضرورة إحياء هذا الهدف الأنبل على أنقاض أوسلو وأخواتها**